مراجعات

أحمد الشقيري ، **معارك العرب وما أشبه الليلة بالبارحة** ، (دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧٥) .

هذه المرة يخرج الاستاذ الشقيري قليلا ، عن نطاق ذكرياته الخاصة ومذكراته السياسية التي سجلها مؤخرا في عدة مؤلفات حافلة . واقول « قليلا » لان المؤلف ، وان كان يكتب عن حملات الافرنج(١) ومعارك العرب العديدة فيها التي تراوحت بين الظفر المجيد والاخفاق الكسير ، الا انه يضمن معظم فصول الكتاب نتفا وشذرات من الذكريات الحميمة والاطلالات الدافئة .

على ان هذا المدخل للتعريف بالكتاب خداع ، اذ قد يوحي بان المؤلف « يؤرخ » لحروب الافرنج. هذا صحيح من زاوية معينة ، الا انه ليس صحيحا على وجه الاطلاق . ذلك ان الاستاذ الشقيري يكتب عن الماضي البعيد (٢) الا انه يغوص في الحاضر الماثل بالمقدار نفسه . ان عيني المؤلف مشغولتان معا في كل صفحات الكتاب : عين على الماضي تستلهمه وتنبش منه الحلو والمر ، وعين على الحاضر السياسي العربي الراهن ، تستقرئه وتقلبه ذات اليمين وذات اليسار ، لتقارن وتقوم وتصدر الاحكام المثالية المستقيمة .

ومن الصفحة الاولى يكشف المؤلف عن موقفه السلبي من « الحاضر » العربي ، في معرض تفسيره لسبب اهداء الكتاب الى عبدالله عثمان بن سعيد القصري ورفاقه البواسل دون أحد من الاحياء المعاصرين . والحق ان عبدالله ورفاقه جديرون بالهدية ، ولو ان الكتاب كان خليقا ان يهدى كذلك الى الناشئة العربية الطالعة التي — للاسف الشديد — تجهل الكثير من تاريخها . ذلك انه ليس هناك معلم او هاد أو مرشد بكفاية التاريخ، والامم التي تجهل تاريخها مؤهلة لان تجهل — وان تتجاهل — مستقبلها ايضا . وما احوج شبيبتنا في هذه الايام بالذات ، الى مثل هذا الكتاب الذي ينقل اليها في بساطة وسلاسة ، الكثير من أخبار وعظات الحروب التحريرية الطويلة مع الافرنج، لما فيها من دروس لا تزال صالحة في بعض جوانبها لتكون نبراسا مضيئا في معارك الحاضر الراهن بالذات . أضف الى هذا ان الكاتب يشحذ العزائم ويستنهض الهمم وينبه الافئدة ، وينذر ويحذر ويكرر ويراجع ويشرح ويعيد ، وهو في هذا كله مدرس متحمس ، يخاطب الشبيبة بالذات، عاقدا العزم على أن يقنعها بما يريد بكل أسلحة المدرسين الاكفاء .

والكتاب يشتمل على تسعة عشر فصلا ، اربعة منها ذات « مناخ » خاص يمكن تمييزه عن سائر فصول الكتاب ، وهي فصول « لي حكاية مع حطين » و« مكا دمرها الله » و« يوم في بيت المقدس » و « على أي حائط يبكون ؟ » . فالمؤلف يسطر في هذه الفصول مذكرات شخصية كان يمكن ان يدرجها في كتاب اخر ، ومع ذلك فانها في مسارها التوجيهي تخدم بصورة مباشرة وقوية المقاصد الاساسية للكتاب . ولا ينبغي ان يفوتنا هذا التنويه بالمستوى « الادبي » الرفيع الذي يميز اسلوب هذه الفصول بالذات ، حيث حرارة السياق ، وطلاوة العبارة ، وجمال الوصف الذي يرتقي في عديد من الفقرات الى مراقي الشعر الوجداني العطر . والحق ان الكاتب في جميع فصول الكتاب يكتب بلغة مشوقة(٣) مشحونة بمقدار هائل من اللوعة والتوجع والتفجع ، والسخرية المريرة من اوضاع قيادية معينة سواء في الماضي او في الحاضر ، وهو ينفث الزفرات الساخنات على حال العرب ومآلهم ، داعيا بداب واصرار الى اهمية وضرورة التوحيد العربي ، ومحذرا من مخاطر ومضار التجزئة .